العلوم الإنسانية —— عدد 50 ديسمبر2018، المجلد ب ،ص. ص 147-158——

التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين ـدراسة استطلاعيةـ

عقاقنية مها[1]
أ.د رابح العايب[2]
قسم العلوم الاجتماعية-كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية-جامعة محمد الشريف مساعدية- سوق أهراس-[1]

قسم علم النفس - كلية علم النفس وعلوم التربية - جامعة قسنطينة 2[2]

ملخص:
تعد الهجرة غير الشرعية من بين الظواهر التي استحوذت على فكر العامة و الخاصة، إذ تعتبر من أهم و اخطر التهديدات التي يواجهها العالم. وتعاني الجزائر هي الأخرى من هذه الظاهرة و تعيش انعكاساتها و وقعها التدميري. و قد جاءت هذه الدراسة لتحلل هذه الظاهرة في الجزائر من خلال مقاربة نفسية اجتماعية تعمل على استطلاع التصورات الاجتماعية لأوروبا عند مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين الذين جمعتنا بهم مقابلات سعينا من خلالها إلى تطبيق و جمع و تحليل البيانات الخاصة بهذه النوع من الفكر الاجتماعي. وقد بينت النتائج انتظام هذه التصورات وفق عناصر محيطية و أخرى مركزية واصفة لايجابيات أوروبا.
الكلمات المفاتيح: التصورات الاجتماعية، الهجرة غير الشرعية، أوروبا، نواة مركزية، نظام محيطي.

Abstract:
The theme of clandestine emigration has given rise to many discussions in recent years and still today, and is considered one of the phenomena, which presents a real danger that threatens social and private life. Algeria also suffers from this phenomenon and suffers its massive consequences. Therefore, this study aims to analyze the illegal emigration in Algeria through a psychosocial approach that reveals the social representations of Europe among clandestine emigrants. The results show that the social representations of Europe are organized around the peripheral and central elements that describe the positive points in Europe.

Keywords: Social representations, illegal emigration, Europe, central core, peripheral system

مقدّمة:

على الرغم من اعتبار الهجرة سيرورة تكيفية و حاجة طبيعية لمختلف المخلوقات و سلوك طرفي يعبر في ابسط أبعاده على الانتقال بصفة فردية أو جماعية بحثا على فرص افصل للحياة. إلا انه تحول إلى آفة و مشكلة خاصة بعد ما طبع البشر على هذه الممارسة خصوصيات الحضارة و الإنسانية.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2018

فالهجرة ظاهرة عابرة للقارات فلم تسلم منها أية قارة على كوكب الأرض، كما أنها عابرة للتاريخ فهي متجذرة في القدم، ملازمة للأفواج البشرية منذ عصور سحيقة تمتد إلى آلاف السنين. اختلف المؤرخون في رصد بداياتها الأولى، إذ أن علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا و الديموغرافيا والعلوم السياسية والاقتصادية وغيرهم اختلفوا في النظريات المفسرة لحركة الهجرة الدولية، كما اختلفوا في الأسباب والدوافع التي حفزت الإنسان في الانتقال من موطنه الأصلي إلى موطن آخر. حيث تتضمن أهم عنصر من عناصر المواطنة بين الإنسان و موارد الطبيعية، فإذا ما شحت الثروة أو نفذت أو سيء استخدامها في مكان ما، كان حق الإنسان أن يهاجر إلى مكان أخر حيث يتوافر رغد العيش. و على أساس هذه الحقيقة المبسطة انتشر الإنسان عبر التاريخ في إنحاء الأرض حاملا معه بذور حضارات و مدنيات متنوعة. (حافظ، 2010، ص. 39)

و ما الهجرة غير شرعية إلا صنف من أصناف الهجرات البشرية، تكون بعد ترسيم الحدود و سن قوانين ضابطة لعملية الانتقال البشري. و تزايد مع انتشار مظاهر التباين في مستوى الحياة و في طبيعة الموارد الاقتصادية و الاجتماعية للدول. فعلى الرغم من الجهود الكبيرة المعنية برصد الظاهرة، إلا أنها مازالت تواجه مجموعة من الصعوبات التي تحول دون توصيف الحجم الفعلي لها. و مع الأخذ بعين الاعتبار هذه الصعوبات المتعددة، فمن الملاحظ أن معدلات الهجرة غير الشرعية ارتفعت بشكل لافت للنظر في العقود الأخيرة بحثا عن فرص العمل و ظروف أفضل للحياة. فقد حاول الكثير من الاسياويون و الأفارقة و المكسيكيون التسلل إلى دول الشمال عبر الحدود البرية و البحرية، متعرضين لأخطار كثيرة كانت تهدد حياتهم. ففي السنوات الأخيرة و مع التوترات و الصراعات السياسية و الأمنية التي يعرفها العالم حالي، تضاعف عدد المهاجرين غير الشرعيين. أين قدرت منظمة الهجرة الدولية في أخر تقرير لها و المنشور في موقعها الرسميhttp://www.iom.int/fr (تاريخ الدخول للموقع 4 سبتمبر 2016) أن عدد المهاجرين الذين وصلوا إلى أوروبا فقط فقدر ب 304،993 شخص في 8 الأشهر الأولى من 2016.

في الجزائر يثير موضوع الهجرة غير الشرعية الكثير من الجدل، فبحكم مكانتها الجغرافية و اعتبارها بوابة إفريقيا تعاني الجزائر من هذه الظاهرة وفق تداعيات متنوعة. فسواء من الأفارقة الواصلين إلى أراضيها أو من مواطنيها الذين ذاقت بهم الأرض بما رحبت فالكل يحاول و يحلم بالتسلل إلى الأراضي الأوروبية مستخدمين مختلف الأساليب و الطرق المحققة لذلك.

سنحاول في هذه الورقة العمل على توضيح مختلف معالم الهجرة عير الشرعية الجزائرية وفق مقاربة متعددة التخصصات تعتمد على التصورات الاجتماعية كركيزة علمية في تفسير هذه الظاهرة الخطيرة و التي تعتمد على سيرورات نفسية اجتماعية توجه سلوك الفرد و الجماعة إلى مغامرة غير محسوبة المخاطر. فالتصورات الاجتماعية عبارة عن تكوين معرفي متعدد الأبعاد الحضارية، الاجتماعية و الفردية التي تتقاسم مع مجموعة من الناس و تهدف إلى التموقع و توجيه أفعالهم و تبريها و على هذا الأساس يحاول المهاجرون غير الشرعيون التصرف وفق تصوراتهم الاجتماعية التي يحملونها حول أوروبا.

و منها سنعمل على الإجابة على التساؤلات التالية:

ما هي التصورات الاجتماعية؟ و كيف يمكن الاعتماد عليها لتفسير الهجرة غير الشرعية؟ أو بعبارة أخرى كيف يتصور المهاجرون غير الشرعيين أوروبا؟

1- أهمية الدراسة:

يتميز الموضوع المدروس بأهمية كبيرة، فالهجرة غير الشرعية ظاهرة عالمية خطيرة تعرف في الوقت الحالي انتشار كبير في مختلف بقاع العالم. فهي ممارسة خطيرة تفتك بحياة البشر على اختلاف أعراقهم، أعمارهم و جنسياتهم فكان من الواجب التدخل الأكاديمي بدراسات تجد حلول بديلة لتلك القوانين و الاتفاقيات التي وقفت عاجزة أمام المد البشري الممارس لها.

كما تستمد هذه الورقة البحثية أهميتها العلمية من أهمية التصورات الاجتماعية و مكانتها المحورية بين الحقول البحثية النفسية، الاجتماعية و حتى الانثروبولوجية. حيث تقدم بمقارباتها الابستيمولوجية

المتعددة و بتقنياتها المنهجية الإجرائية قراءة شاملة و واسعة لمختلف الظواهر الإنسانية و الاجتماعية باعتبارها مجال تقاطع مختلف الدراسات السلوكية بمظاهرها الحضارية التاريخية و النفسية الاجتماعية. فالتعمق في دراسة النفس البشرية بأبعادها المختلفة لا يتحقق إلا بتبني التصورات الاجتماعية كمرجعية أساسية لكشف الحقائق الاجتماعية.

2- **أهداف الدراسة:**

في دراستنا هذه فضلنا عدم تحديد فرضيات خاصة و أن البعد الاستطلاعي قد ميزها، غير أننا حددنا هدف محوري شامل يتمثل في معرفة التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين و أهداف أساسية أخرى تتمثل في:

1- التأسيس النظري و الابستيمولوجي لموضوع الهجرة غير الشرعية وفق مقاربات التصورات الاجتماعية.
2- الاختبار الامبريقي الأولي لتقنية التداعي الحر و مدى فعاليتها في تحفيز عينة البحث.
3- استطلاع طريقة تنظيم التصورات الاجتماعية لأوروبا عند فئة المهاجرين غير الشرعيين.
4- التحليل الكيفي للتداعيات المنتجة و ربطها بالبناء النفسي و الاجتماعي للمواطن الجزائري.

3- المفاهيم الإجرائية:

3-1التصورات الاجتماعية: وفق هذا الطرح التأسيسي الاستطلاعي تتبنى الدراسة في هذه الورقة تعريف عام للتصورات الاجتماعية دون مرجعية مقارباتية و متمثل في اعتبارها نوع من الفكر الاجتماعي المنظم و المشترك، المبني من خلال سيرورات تكوينية تتمثل في الترسيخ و التوضيع اللذان يعملان على ربط مختلف مكونات الفرد و الجماعة من ماضي و حاضر وفق عناصر معرفية تعمل على تبرير سلوكهم و تفسير العالم.

3-2الهجرة غير الشرعية: هي الانتقال المكاني السري الفردي أو الجماعي بطريقة مخالفة لقانون الهجرة كما هو متعارف عليه دوليا. تتبنى الدراسة العاملة للتصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين مختلف مراحلها(التأسيسية، الاستكشافية و حتى النهائية) تعريف المخدامي للهجرة غير الشرعي فالجزائر، حيث يقصد بالهجرة غير الشرعية أو الهجرة السرية أو الحرقة: مغادرة أو محاولة مغادرة التراب الجزائري و التسلل إلى أراضي الدول الأخرى إما بدون وثائق رسمية أو بوثائق مزورة، سواء عن طريق البر أو البحر أو الجو.(المخدامي, 2012, 20)

4- الخلفية النظرية:

4-1 التصورات الاجتماعية ركيزة علمية أساسية للدراسة:

مرت التصورات الاجتماعية و بالتحديد مفهوم التصور بعدة مراحل تاريخية قبل أن يصقل كمفهوم أساسي في علم النفس الاجتماعي خاصة و كل العلوم الاجتماعية و الإنسانية عامة. فقد حلل من طرف الفلاسفة الإغريق و حتى المسلمين أمثال ابن سيناء و ابن خلدون. و يعتبر أيميل دوركايم أول من طرح إشكالية التصورات الفردية و الجماعية من خلال دراساته الموثقة في مجلة الميثافزيقا و الأخلاق سنة 1889. (Durkrim, e, 1998, p23)

و في فقترة الستينات من القرن الماضي عرف مفهم التصورات الاجتماعية تفعيل على يد سارج موسكوفيسي الذي درس التصورات الاجتماعية للتحليل النفسي و كيفية تطور هذه النظرية العلمية في فكر الجمهور أين نشر أبحاثة في كتاب : "التحليل النفسي، صورته و جمهوره" La psychanalyse, son image et son public سنة 1961 و أعيد نشره 1976. (Moscovici, s, 1976, P. 40)

و بعد هذا الإحياء الذي كان فيه الفضل الكبير للعالم الكبير موسكوفيسي توالت الدراسات وازداد عدد العلماء اللذين اهتموا بموضوع التصورات الاجتماعية. و منهم على سبيل الذكر و ليس الحصر: Denise Jodelet , Herzlich, Laplantine, René Kaés, Mouliner, Guimelli et Rouquette, J-C Abric.

فشهدت الثلاثين سنة الماضية (أي مع فترة الثمانينات و تسعينات من القرن الواحد و العشرين) أبحاث معمقة و جدية حول التصورات الاجتماعية. نتج عنه كم معرفي و منهجي جديد و متنوع ساهم في إرساء قاعدة علمية لكل من يرغب في دراسة هذا الموضوع و التوسع فيه.

فالتصورات حسب Fischer (2010, P.131) عبارة " التكوين الاجتماعي لمعرفة عادية مبنية عن طرق القيم و المعتقدات المشتركة لمجموعة اجتماعية حول عدة مواضيع (أشخاص، أحداث، فئات اجتماعية.....الخ). تؤدي إلى رؤية مشتركة للأشياء، و التي تظهر أثناء التفاعل الاجتماعي". فالتصورات الاجتماعية لأوروبا عبارة عن معرفة اجتماعية مبنية وفق القيم و المعتقدات المشتركة لمجموعة المهاجرين غير الشرعيين حول موضوع أوروبا و التي تعكس رؤية موحدة تلاحظ من الأحاديث و ردود الأفعال.

فعملية بناء التصورات الاجتماعية لا تقتصر على إعادة إنتاج الواقع بل هي عملية خلاقة ترتب مكونات الواقع بطريقة غير حقيقية تتماشى و خصوصية الفرد و الجماعة و تخضع لترتيب المعايير و القيم الاجتماعية و بذلك تنتج واقع جديد "متصور" يوجه و يؤثر على مواقف و سلوكيات الفرد في الجماعة كما يحدد نوع العلاقة بين الفئات. فيسهل التواصل و التكيف. حيث أكد ابريك أن:" دور جديد للتصورات: هو صيانة و تقوية الموقف الاجتماعي للجماعة"(Abric, J, 2003, P. 11). فالتصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين مثلا عبارة عن نتاج لمجموعة من الظروف الفردية و الجماعية لهؤلاء الأفراد كما أنها انعكاس لرغبتهم في الهجرة أين تحدد العلاقة بين هذه الفئة من الناس.

تعمل التصورات الاجتماعية وفق سيرورات تكوينية تحمل اسم التوضيع و الترسيخ تستولي على كل ما هو اجتماعي، معلومات أو حدث و تعيد تشكيلها. و بالتالي تصبح عملية متكاملة. تدور في التفاعلات التي تربط بين ما هو نفسي و ما هو اجتماعي، فهما نشاطان نفسيان يضعان بعين الاعتبار مجموعة من الميكانزمات العقلية و الظواهر الاجتماعية المحددة عن طريق سياقات تعبر من خلالها. فتضمن هذه السيوررتان، عن طريق التفاعل، وظيفة التصفية المعرفية. كما يؤمنان الإدماج و بطريقة نوعية اجتماعية الوضعيات أو الأحداث في نظرة مقبولة و متناسقة. (Fischer, G, 2010, P. 133)

فالفرد يبني واقعه بالاعتماد على كمية المعلومات المكتسبة و نوعيتها و كيفية تنظيمها. فيمكن أن تكون متعددة نسبيا، متنوعة، دقيقة. أو على شكل قوالب نمطية Les Stéréotypes تعمل على تعريف الصور الثابتة للذاكرة المشتركة. و هذه المعلومات تتشكل من أفكار مكتسبة من حياة الفرد و تجاربه الماضية و أيضا من أفكار الجماعة المرجعية أو حتى الثانوية التي ينتمي إليها الفرد حول موضوع معين. فالتصورات الاجتماعية لأوروبا في الجزائر عموما متأثرة بكم المعلومات الهائل الذي يتلقاه الفرد حول هذا الموضوع بحكم العلاقات التاريخية، الاقتصادية أو حتى القرب الجغرافي، كما يتأثر موضع أوروبا بالقوالب النمطية الجاهزة المتداولة في مجتمعنا. (Doise, W. Clemence, A . Larenzi-Cioldi, F,1992, p 51)

بذلك فالتصورات الاجتماعية احد مفاتيح الأنشطة الذهنية و حلقة الوصل بين مختلف الأبعاد الاجتماعية و الإنسانية. فتتحدد كأشكال للفكر البشري، موجهة نحو التفاعل و فهم المحيط و التحكم به و أيضا البث في السلوك و تبريره. أي أنها أنظمة لتفسير الأحداث و العالم و هي القوى الموجهة و الأساسية للآراء و الأحكام و المعتقدات. تهدف إلى ضمان الانتماء للجماعة عبر تنظيم الروابط و الأفعال. حيث تشرع التصورات الاجتماعية للسلوكات، و توفر الحجة لتفسير التمايز الاجتماعي بتبريره. و ذلك عن طريق ضرورة تكوين قرارات و سلوكيات أو مواقف. تكون نتيجتها صيانة و تقوية المكانة و الموقف الاجتماعي لجماعة ما. فالتصورات تلعب دورا في تحديد السلوك قبل القيام به أي التبرير القبلي. كما تشرح الفعل بعد الإقدام عليه و هو التبرير البعدي أمام مختلف المواقف التي يتعرض لها الفرد. (Fischer, G, 2010, P. 133-135)

و عليه تتضح المكانة الأساسية للتصورات الاجتماعية كركيزة علمية تعمل على تفسير الظواهر النفسية الاجتماعية عن طريق أساليب منهجية توفر تقنيات تترجم السلوك البشري و تأول تداعياته. فكانت

الأنسب لدراسة موضوع الهجرة غير الشرعية وفق مقاربة نفسية اجتماعية. تأسس لفهم هذه الآفة عبر الخوض في فكر المهاجر غير الشرعي و استخراج معتقداته و أرائه التي يتقاسمها مع فئة تشاركه نفس التصور حول مواضيع متعلقة بتفاصيل واقعة و قرارات حياته ككل مثل : الهجرة، الحياة، الموت، المغامرة، المستقبل، أوروبا.....

2-4 الهجرة غير الشرعية في الجزائر أزمة متضاربة الأبعاد:

تعد الهجرة غير الشرعية من بين الظواهر التي استحوذت على فكر العامة و الخاصة. إذ تعتبر من أحد أهم و أخطر التهديدات لكل المعمورة. و تعتبر الجزائر من بين الدول الأكثر تضررا من هذه الظاهرة، سواء كدولة مصدرة للمهاجرين غير الشرعيين خارج حدودها الجغرافية أو كدولة مستضيفة للمهاجرين الأفارقة بمختلف جنسياتهم. فخلفت هذه الأزمة مزدوجة الأبعاد واقع معقد.

فالجزائر و بشاعة أراضيها و مجاورتها ل 7 دول(تونس ، ليبيا، المغرب، النيجر، مالي ، موريتانيا و الصحراء الغربية) أصبحت نقطة عبور و مقصد للأفواج من الأجانب الأفارقة و المغاربة، الاسياويون و العرب. و أصبحت تحتضن أعداد بل قبائل من المهاجرين الفارين من الحرب و الفقر و الأوبئة الذين يتسللون عبر الحدود مستعملين طرق و وسائل متعددة.

فاغلب هؤلاء المهاجرين يسلكون ممرات النيجر و مالي و الاستقرار فترة معينة بولاية تمنراست لترتيب الجزء الثاني من رحلة الهجرة غير الشرعية، و من ثمة التوجه إلى غرداية و العاصمة و كذا الولايات الشمالية كوهران و مستغانم و عين تموشنت و تلمسان من اجل محاولة التسلل إلى أوروبا عبر البحر. (ساعد، ر 2012، ص. 27)

ففي البداية كانت الجزائر ارض عبور إلى الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، إلا انه و في السنوات الأخيرة، تغيرت المعطيات حيث شددت الحراسة على السواحل و سنت قوانين رادعة للهجرة غير الشرعية الذي قابله تحسن الأوضاع في الجزائر. كما لا يمكننا أن ننسى الوافدين من سوريا و باقي الدول العربية التي تعاني اختلالا امنيا أو حربا أهلية. فيكفي النظر إلى الشوارع و المساجد لمعرفة الأعداد المهولة منهم، اين امتهنوا التسول أو العمل في السوق السوداء. فتحولت الجزائر إلى موطن استقرار لهؤلاء الوفود الذين قد يلجئون إلى الجريمة المنظمة كالتهريب و تزوير العملات و المتاجرة بالمخدرات و للحصول على أموال.

و بذلك تتضاعف معاناة الجزائر من ظاهرة الهجرة غير الشرعية، فهي إحدى الدول القلائل الجامعة بين التصدير و العبور، أين تعتبر مقصد و محطة كل المهاجرين سواء كانوا جزائريين أو أفارقة. فتتخذ أفواج المهاجرين غير الشرعيين الموانئ و السواحل الجزائرية للانطلاق في مغامراتهم إلى السواحل الجنوبية لأوروبا.

و للهجرة غير الشرعية في الجزائر أسباب ضاربة في عمق التاريخ مست هوية و وطنية الفرد الجزائري في عمقها. و سببت أزمة انتماء و بحث عن الذات يتقاسمها العديد من أبناء الوطن خاصة الفئة الشابة منه. فقد مرت الجزائر بالعديد من الظروف و العوامل التي رسمت معالم الواقع الحالي و ألقت بظلالها على مخرجات الحياة السياسية و الاجتماعية و حتى الثقافية. ففي فترة التسعينات من القرن الماضي مرت الجزائر بمرحلة أمنية صعبة عملت من خلالها على القضاء على ظاهرة خطيرة هي الإرهاب. كما عانت البلاد من أزمات اقتصادية نتيجه اعتمادها على البترول الذي يعرف سعره تذبذب في الأسواق العالمية. مما خلق اقتصاد هش و قلص الفرص التنموية في البلاد فارتفعت نسبة البطالة و انتشرت المعاملات غير الأخلاقية و الرداءة في مختلف قطاعات البلاد التي عرفت سوء تسير كبير و تبديد للمال العام الذي تكون اثر البحبوحة المالية التي صادفت ارتفاع الأسعار المحروقات في العشرية الأولى من القرن الواحد و العشرين. فتكونت هوة عميقة بين الشباب و السلطة بسبب إبعادهم عن المشهد العام للبلاد و عن المشاركة التنموية الفعالة فانتشر الإحباط نفسي و التهميش الاجتماعي. وجدت كل هذه الأبعاد المتشابكة أرضيته المعبدة بسياسات فرنسية طبقتها في الجزائر طول الحقبة الاستعمارية عملت فيها إلى إعادة هيكلة الأنماط التفاعلية الاجتماعية و تشويه الهوية بمميزاتها العربية الإسلامية.

كل العوامل التي ذكرت سابقا خلفت أثارا نفسية عميقة عند المواطن الجزائري، فمن جهة يشعر بالتهميش و الظلم في بلاده و من جهة أخرى يرى في أوروبا الخلاص و الحلم الذي يسعى لتحقيقه سواء بطريقة شرعية أو غير شرعية، فيبقى مشروع الهجرة غير الشرعية، مشروع مخاطرة و مغامرة بامتياز، فمن نراهم أو نسمع عنهم، هم فقط المهاجرون الذين نجحوا في عمليات العبور و هم قلة قليلة مقارنة بالأغلبية الذين فشلوا في تنفيذ هذا الأمل، و كان البحر الأبيض المتوسط قبرا لهم. رغم غياب الإحصاءات الرسمية حول هذه الظاهرة السرية إلا انه و في سنة 2015 فقط تم إحباط 1500 محاولة هجرة غير شرعية من طرف حرس السواحل الجزائرية، كما رفضت الشرطة الفرنسية دخول 1259 شخص بسبب تزوير التأشيرة أو أوراق السفر و تم طرد 3217 مهاجر جزائري و إحصاء 10 ألاف جزائري تجاوزوا تاريخ التأشيرة في البلدان الأوروبية. (العايب، ر. عقاقنية، م، 2018، ص 214)

4 الخطوات المنهجية:

5-1 المنهج المستخدم:

تعتبر الدراسة المعروضة في هذه الورقة حلقة بحثية من حلقات متسلسلة و مترابطة منهجيا و علميا تسعى إلى عرض دراسة موسعة حول التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين. و عليه فان هذا الطرح المقدم هنا يقودنا إلى تبني منهج وصفي استطلاعي يتوافق و الأهداف المسطرة في هذه المرحلة و بنائها المعرفي. فقد قدمت لنا التصورات الاجتماعي ركيزة منهجية و خيارات تقنية وفيرة، سيتم تطبيق البعض منها و التحقق من فعاليتها في تجميع الفكر الإنساني المشترك و المتقاسم بين فئة من الناس.

5-2 عينة الدراسة:

إن دراسة التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين لا يتحقق إلا بعينة قصدية تحقق الشرط الأساسي و المتمثل في المرور إلى الفعل أي الإقدام فعليا على الهجرة غير شرعية و خوض تجربتها سواء نتج عن هذا الفعل النجاح و الوصول إلى الأراضي الأوروبية أو الترحيل إلى الوطن. فقد أجريت الدراسة على خمسة (5) أفراد. أقدم ثلاثة (3) منهم على هذا النوع من الهجرة عبر الحدود البحرية و اثنان عبر تركيا و نجحوا في المرور إلى الأراضي الأوروبية أين مكثوا مدة زمنية انتهت بترحيلهم إلى الجزائر.

جدول رقم01: خصائص عينة الدراسة

الحالات	المدينة	السن	الحالة المدنية	المستوى الدراسي	العمل الحالي	الحالة الاقتصادية
5 أشخاص	سوق أهراس	من 28-39 سنة	4 عزاب 1 متزوج	من السنة أولى إلى الثالثة ثانوي	3 تجار 2 بطالة	وضعية جيدة لثلاث أشخاص و انعدام الدخل لشخصين

تعتبر الممارسة الميدانية في المواضيع الحساسة أمر صعب و شاق في الدراسات النفيسة و الاجتماعية فالوصول إلى المهاجرين غير الشرعيين لم يكن بالأمر الهين. مما تطلب علينا اعتماد تقنية منهجية يطلق عليها كرة الثلج و هو أسلوب يستخدم في الدراسات المماثلة. فقط مكنتنا هذه العينة القاعدية من التعرف على خمس أشخاص آخرين طبقنا عليهم أسس الدراسة الاستكشافية الثانوية و مكننا الكل (العشرة) من الوصول إلى عينية تمثيلية للدراسة النهائية.

5-3 أدوات جمع البيانات:

أ- المقابلة نصف الموجهة:

المقابلة نمط معين من التواصل يعرف على انه حالة من التفاعل اللفظي بين شخصين في اتصال مباشر مع تحديد الهدف مسبقا عبر مخطط أو دليل مقابلة. و تعد من التقنيات القاعدية لجمع البيانات حول

التصورات الاجتماعية لما توفره من مرونة و حرية الإجابة و رصد واقعي للأفكار و الاتجاهات و الآراء المحيطة بموضوع ما. و في دراستنا هذه ساعدتنا المقابلات نصف الموجهة على تجميع كم معرفي كبير حول المهاجرين غير الشرعيين: حياتهم، تجربة الهجرة، أرائهم، و أيضا تصوراتهم حول أوروبا.

للتوضيح فإن الظروف العامة التي أجريت فيها المقابلات كانت نوعا ما صعبة نظرا لرفض هؤلاء الأفراد أو انشغالهم عن تحديد موعد للمقابلة مما أجبرنا على تطبيقها في أماكن عامة أو أماكن عمل الأفراد المعنيين. و استغرقت ما بين 30 و 60 دقيقة. حيث استفتحت المقابلة بأحاديث عامة أين عملت على طمأنة المستجوبين (تقديم ضمانات حول سرية الهوية و استخدام المعلومات في البحث العلمي فقط) و بث جو من الأريحية حتى أتمكن من جمع اكبر كم ممكن من المعلومات. فكانت البداية مع مجموعة من الأسئلة السوسيو- ديموغرافية ثم حاولنا التعرف على ظروفهم المعيشية و أسباب و طرق الهجرة غير الشرعية التي اعتمدوا عليها، مطبقين في الأخير تقنية التداعي الحر التدرجي.

ب- التداعي الحر التدرجي Association libre hiérarchisée:

تعتمد التصورات الاجتماعية في تجميع بياناتها على تقنيات متنوعة مستمدة في اغلبها من ممارسة إكلينيكية فرويدية هي "التداعي الحر"، إحدى هذه التقنيات نجد التداعي الحر التدرجي و التي تركز على تجمع معلومات حول التكرار و الأهمية، حيث يطبق هذا الأسلوب على مرحلتين، تجمع من الأفراد في مرحلة أولية إنتاج عبارات أو تداعيات انطلاقا من كلمة الحث "أوروبا" و يطلب من نفس الأفراد ترقيم الكلمات حسب أهميتها عندهم من 1 إلى أخر كلمة حسب عدد الاستحضار.

5-4 تقنيات معالجة و تحليل بيانات الدراسة:

في سعينا لتحقيق الأهداف و تقصي التصورات الاجتماعية، اعتمدت الدراسة على أساليب معالجة و تحليل البيانات الخاصة بالتصورات الاجتماعية، و هي عبارة عن تقنيات تمزج بين الكمي و الكيفي لتحول لنا المعطيات الخام إلى قضايا مركزة ذات دلالات معرفية عملية نفسية-اجتماعية في آن واحد. (العايب، ر. عقاقنية، م، 2018، ص217)

اعتمدت دراستنا النهائية و حتى الاستطلاعية المعروضة في هذا المقال على أسلوب التحليل النمطي Analyse prototypique و التحليل الفئوي Analyse catégorielle، و هما من الأساليب التي تنظم التداعيات و الاستحضارات و تقدم التنظيم الأولي للتصورات مما تسمح بترجمتها و معرفة أبعادها، استعملت هذه التقنيات من طرف الباحثين في فرنسا و نظمت في ما بعد من طرف بيار فارجاس Vergés Pierre (1992-1994). كما عدلها جون كلود أبريك ليعوض رتبة الظهور برتبة الأهمية أين اعتمدنا على هذا التعديل في التحليل النمطي لدراستنا.

5- عرض، تحليل و تفسير النتائج:

6-1 عرض النتائج:

لمسنا خلال المقابلات التي جمعتنا بالأفراد المستجوبين مرارة و سخط أفراد العينة من مختلف مخرجات الواقع الاجتماعي، الاقتصادي و حتى السياسي الذي يعيشون فيه مما صنع هوة عميقة تجلت باغتراب نفسي كبير و انسحاب من مختلف ممارسات الانتماء للمجتمع، على الرغم من المستوى الاقتصادي الجيد الذي ينعم به العديد منهم، و هذا ما يفسر إقدامهم على الهجرة غير الشرعية و التمسك بها كحل وحيد لتحسين الحياة.

نتج عن تطبيق تقنية التداعي الحر التدرجي تجميع بيانات un corpus حول محتوى و مضمون التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين، امتازت الإجابات بسلاسة و سرعة تجميعها و وفرة النشاط الذهني اثر سماع كلمة الحث، فقد أنتج كل فرد خمس (5) تداعيات (خمس عبارات تعتبر إنتاج جيد في التصورات الاجتماعية فبعض الدراسات تتمكن من تجميع واحدة أو اثنان و على الأكثر ثلاث عبارات) .

تم التوقف عند التداعي الخامس، فبعد كل كلمة منتجة و خاصة مع الكلمة الثالثة لاحظنا إنهاك المستجوبون، فقد استنفذوا أفكارهم و طال وقت الإجابة مما جعلنا نتم هذه المرحلة و نكتفي بخمس

كلمات) تمثل كل واحدة تداعي فرد واحد و بذلك يكون المجموع خمسة و عشرون (25) عبارة خضعت هذه الكلمات و كمرحلة أولية إلى حساب مؤشر التنوع Indice de diversité الذي ستخرج من استعمال المستجوبين لكلمات مختلفة أو متوافقة لتصوراتهم حول أوروبا و مؤشر الندرة Indice de rareté الذي يبين اختلاف الكلمات المنتجة و المذكورة مرة واحدة و هذا قصد التحقق من انتظام و ثبات محتوى التصورات الاجتماعية. (العايب، ر. عقاقنية، م، 2018، ص218)

جدول رقم 02: مؤشر التنوع للتصورات لاجتماعية لأوروبا

التصور الاجتماعي	(O) العدد الإجمالي	(T) الكلمات المختلفة	مؤشر التنوع T/O
أوروبا	25	16	0,64

- (O): nombre total des occurrences
- (T): nombre totale des mots différents

يبين الجدول الثاني مؤشر التنوع (16÷25) الخاص بنتائج التداعي الحر(التحليل النمطي يوضح ذلك أكثر) و كانت النتيجة 0,64. يدل هذا المؤشر على أن التصورات الاجتماعية لأوروبا منظمة جيدا. و ذلك وفق القانون المتبع للتحقق من الانتظام: فكلما قربت النتيجة من الرقم واحد (1) كلما زاد تنظيم التصور الاجتماعي و كلما نزل المؤشر و قرب من صفر (0) كان ذلك دليلا على عدم انتظام التصور و عدم تكونه.

جدول رقم 03: مؤشر الندرة للتصورات الاجتماعية لأوروبا

التصور الاجتماعي	(O) العدد الإجمالي	Hapax كلمات تظهر مرة واحدة	مؤشر الندرة Hapax/ O
أوروبا	25	10	0,4

- Hapax: nombre total des mots différents apparus une seule fois

مؤشر الندرة (10÷25= 0,4) هو معامل يقيس الحقيقة الداخلية لمكونات التصورات الاجتماعية، إذ يرتبط بنسبة Hapax أي بعدد الكلمات المذكورة مرة واحدة فكلما زاد عدد هذه الكلمات كلما ارتفع مؤشر الندرة نحو واحد (1)، ما يعكس صراع معرفي داخل التصور (Un conflit cognitif) بمعنى أن النواة المركزية تخضع إلى اختلاف اصطلاحي و أن التصور الاجتماعي غير مستقل. و العكس صحيح كلما قل عدد Hapax كلما انخفض مؤشر الندرة إلى صفر مما يدل على أن التصور مستقل و متوافق autonome et consensuelle. (عقاقنية، م، 2018، ص218)

و هذا ما بينته نتائج الجدول رقم 3 فمؤشر الندرة الخاص بدراستنا يمثل 0,4 أي قيمة قريبة أكثر من الصفر و بذلك فالتصور الاجتماعي لأوروبا مستقل و متوافق.

2-6 التحليل الفئوي:

بالاعتماد على تقنية تحليل المحتوى تم تبويب العبارات حسب الحقل الدلالي لمعانيها ووضعت ضمن فئات مختلفة، حيث تحمل كل فئة جملة من العبارات المترادفة أو قريبة المعنى و ذلك حسب الجدول التالي:

جدول رقم 04: تبويب العبارات حسب المعنى الدلالي

الفئة	الكلمات(16)	التكرار(25)	النسبة المئوية
نمط الحياة	الحياة، إمكانية العيش، متطلبات العيش، التطور، النظام، الأسرة	08	32
الحرية و الترفيه	الحرية، الجنة، التسلية، الثقافة	07	28
العمل و الثروة	العمل، المال	05	20
العدالة الاجتماعية	العدل، المساواة، حقوق الإنسان، قيمة الإنسان	05	20

دائرة النسب لبنية التصور الاجتماعي لأوروبا حسب الفئات

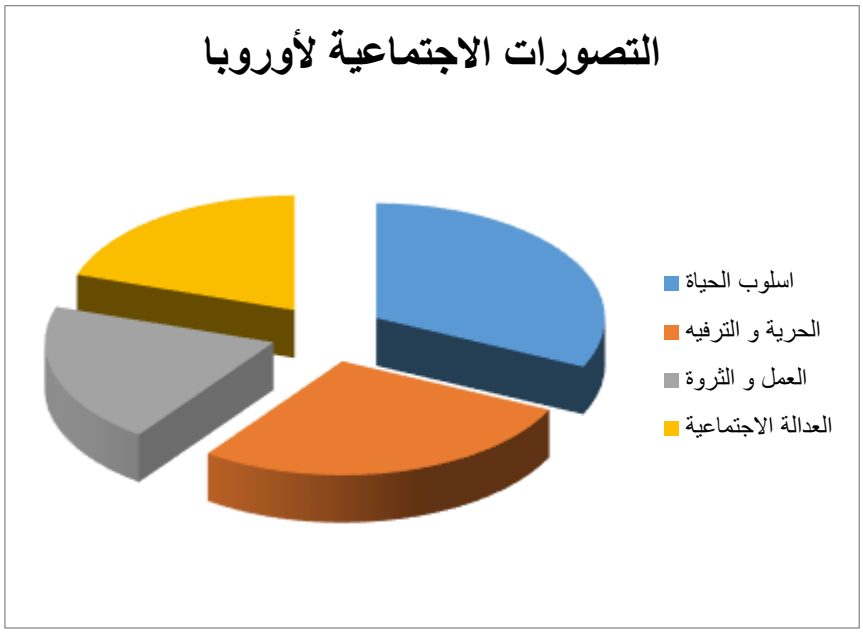

3-6 التحليل النمطي:

التحليل النمطي هو أسلوب يعمل على تنظيم البيانات وفق 4 خانات تحدد بعتبة أفقية و أخرى عمودية وفق عاملين أساسيين هما التكرار و الأهمية حيث توضع المنتجات وفق النتائج التي تحصلت عليها.
تحدد العتبة le seuil الخاصة بالتكرارات بحساب المتوسط الحسابي(مجموع التكرارات 25 تقسم على عدد الكلمات المختلفة 16) أما العتبة الخاصة برتبة الأهمية فقد اعتمدنا على قانون Zipf للإحصاء(مجموع متوسط رتبة الأهمية لكل كلمة على عدد الكلمات الإجمالي):

جدول رقم 5: التحليل النمطي لمحتوى التصورات الاجتماعية لأوروبا حسب تعديل أبريك

Fréquence التكرار		Rang d'Importance رتبة الأهمية					
		متوسط رتبة الأهمية قوي R≤3,26			متوسط أهمية ضعيف R>3,26		
	تكرار قوي F>1,56	عناصر أولية			عناصر محيطية		
			F	R		F	R
		العمل	4	3	النظام	2	3,5
		الحرية	3	2,66	الحياة	2	1
		العدل	2	3	الجنة	2	2
	تكرار ضعيف F≤1,56	عناصر ثانوية			عناصر فارقية		
			F	R		F	R
		التسلية	1	2	المساواة	1	4
		حقوق الإنسان	1	2	الثقافة	1	4
		المال	1	2	متطلبات العيش	1	5
		إمكانية العيش	1	3	قيمة الإنسان	1	5
					الأسرة	1	5
					التطور	1	5

4-6 تأويل النتائج:

بعد التأكد الإحصائي من توازن التصورات الاجتماعية لأوروبا و استقرارها كفكر اجتماعي متقاسم، تم تنظيم نتائج الدراسة عبر تحليل فئوي و أخر نمطي. فتبويب العبارات المنتجة وفق فئات متشابهة المعنى وضح لنا الرؤية أكثر، بل و سهل علينا معرفة التصورات أكثر. فهي منتظمة حول فئات محورها العمل و الحرية، فقد بين الجدول الرابع و الخامس احتلال كل من هذه العبارات مكانة أولية مع تكرار كبير و ترتيب مهم. أما باقي العبارات فقد احتلت مركز ثانوي و الفارقي.

فبملاحظة الجدول رقم خمسة (5) يتبين أن محتوى التصورات الاجتماعية لأوروبا يوزع وفق أربع مجالات. فالتداعيات المصنفة في الخانة رقم واحد ترشح للمركزية لأنها تعكس انسجام ايجابي و مرتفع بين خاصيتي التكرار و رتبة الأهمية فكل من الحرية، العمل، العدالة عرفت تكرار مرتفع و ترتيب جيد، حيث اعتبر أربعة مستجوبون من أصل خمسة أي نسبة 80٪ أوروبا بلد العمل و 60 ٪ الحرية[(3*100)÷5] و 50٪ العدالة . أما الخانة رقم اثنان (2) و التي ضمت عبارات النظام، الحياة و الجنة و التي عرفت تكرار جيد و ترتيب ظهور متأخر فهي تمثل النظام المحيطي. و تتمثل الخانة رقم ثلاثة كل من التسلية، حقوق الإنسان، المال، إمكانية العيش و هي العناصر الثانوية أما الخانة الرابعة فتمثلت في حالة من العناصر تعبر عن غموض و تذبذب في المكانة يعبر عليها جون كلود ابريك ب " منطقة عدم توازن ظرفي" Une zone potentiellement déséquilibrante أو القدرة على تغير

محتمل للتصور فتحتوي على العناصر الفارقية و تشمل: المساواة، التطور، متطلبات الحياة، قيمة الإنسان، الأسرة، الثقافة.

و عليه فان البيانات المجمعة تعكس المكانة الأساسية لموضوع التصور في فكر و ووجدان المهاجرين غير الشرعيين بل هي تعبير لا شعوري عن حاجات متدرجة الأولية بين أساسية و ثانوية توفرها أوروبا و يرغبون في عيشها حتى و أن تطلب الأمر حياتهم. فكانت عبارة العمل أكثر ما تم تكراره عندهم و أكبرها أهمية لتعكس واقع اجتماعي صعب يعيشه الشاب الجزائري الذي يعاني من البطالة في ظل أزمة التشغيل التي تعيشها البلاد. و تأتي عبارة الحرية كثاني أهم تداعي لتنفس عن رغبة ضمنية في التحرر من مختلف القيود الاجتماعية و الثقافية و حتى السياسية التي تكبله. أما العبارة الثالثة فهي العدل و هي مكون فقده المهاجر غير الشرعي في بلاده أين يحس بالتهميش و انعدام المساواة الاجتماعية و التوزيع غير العادل لثروات البلاد. امتازت باقي العبارات بتباين بين الأهمية و التكرار لتشكل مطالب ثانوية يعمل المهاجر غير الشرعي لتحقيقها بعد إقدامه على الهجرة غير الشرعية كالتسلية، الثقافة، العيش..... و هي تطلعات لم يلامسها في وطنه فسعى إلى تحقيقها خارجه.

تمثل كل هذه التداعيات مجموعة من الآراء، الأفكار و المعتقدات المشتركة ببين فئة من الشباب الجزائري الذي يحس بالانسلاخ من أوصوله و الضياع في أزمة هوية و مكانة مفقودة. تجلت حسب جون كلود أبريك في شكل من أشكال المعرفة البسيطة التي تتموقع بين ما هو اجتماعي و ما هو نفسي و التي تعمل على تبرير تصرفات المهاجرين غير الشرعيين و سلوكياتهم بالاستجابة بطريقة محددة حول موضوع ما.

فالدراسة وضحت تصورات اجتماعية منظمة، مشتركة و متقاسمة بين المهاجرين غير الشرعيين. فالتصور حول أوروبا موجود و برهن عليه باستحضار ذهني قوي و معبر عن تلاحم وقائع اجتماعية و معاش نفسي صعب اخرج في كلمات و عبارات قد لا يلقي لها المستوجب اهتمام أو أهمية غير أنها تحكم سلوكه و توجع إرادته نحو ردود أفعال غير عقلانية و نحو قرارات خطيرة قد تودي بحياته.

و بذلك تتحول التصورات الاجتماعية عند بناءها إلى مسلمات و بديهيات لا يمكن التشكيك فيها و بقوة سيروراتها التكوينية التي تتلاحم مع مكونات ثقافية، اجتماعية، نفسية لتشكل واقع خاص بالمهاجرين غير الشرعيين يرون وفقه أن أوروبا مفتاح النجاح و أمل الحياة بمختلف متطلباتها الأساسية أو الثانوية. فهي عناصر معرفية و عاطفية، أي مجموعة من المعلومات المبنية و المنتظمة لموضوع ما عبر وحدة هرمية واصفة لايجابيات أوروبا وفق عناصر محيطية و أخرى مركزية.

كما بينت لنا الممارسة الميدانية للدراسة الاستطلاعية الأولية وجوب استعمال تقنيات جمع بيانات بسيطة و غير معقدة التطبيق. فقد أثبتت تقنية التداعي الحر التدرجي نجاحها مع أفراد العينة المختارة ذلك لبساطة تطبيقها و قدرتها على تجميع أشكال الفكر البشري بسرعة و سلاسة، حيث لا تتطلب مستوى علمي أو معرفي كبير على عكس بعض التقنيات الأخرى كالشبكة الترابطية Réseau associatif أو تقنية الاسكامات المعرفية القاعدية Schémes Cognitifs de Base التي تتطلب مستوى دراسي و تعليمي جيد. و عليه ستعمل الدراسة على استكمال العمل وفق دراسة استكشافية ثانية تهدف على اختبار بطاقة التداعي كتقنية ثانية لجمع البيانات حول الحقل المعرفي للتصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين.

خلاصة:

تتناول هذه الدراسة قضية تفرض نفسها على الواقع لاجتماعي و الأكاديمي، و هي قضية المهاجرين غير الشرعيين و تصوراتهم الاجتماعية. حيث تصب هذه الظاهرة في دائرة اهتمام علم النفس الاجتماعي، إذ تعد منتجا لواقع اجتماعي تاريخي و نفسي كان له بالغ الأثر على حياة الفرد و الجماعة. فما كان أمامنا إلا الوقوف عليها بالدراسة لكسر كل الحواجز و الصعوبات و فتح مجال الدراسة فيها و تقديم منتوج علمي يسهم في تفسير الظاهرة من خلال نتائج ذات مصداقية يبنى على ضوئها استراتيجيات و خطط تعمل على الحد الفعلي و الفعال لظاهرة تزداد في الاتساع يوما بعد يوم.

فقد تحولت الهجرة غير الشرعية إلى أزمة عالمية عجزت مختلف الجهات على تكميمها. بل على العكس تعرف هذه الظاهرة الخطيرة أنشار و اتساع مكاني رهيب يمس كل البشر الذين فقدوا الأمل في أوطانهم. فما كان منهم إلا اللجوء إلى مغامرة أخيرة و يائسة للحصول على غد أفضل

عرضت هذه الورقة أعمال الدراسة الاستطلاعية الأولية للتصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين، حيث تتمكنا من إرساء قاعدة نظرية حول مستلزمات اختيار الموضوع. كما تم استطلاع الممارسة الميدانية التي بينت ضرورة دراسة التصورات الاجتماعية وفق مراحل وخطوات منهجية أساسية توجب اختيار مقاربة منهجية للعمل على ضوئها و اختيار تقنيات جمع للبيانات تتلاءم و الخصائص العينة المختارة . و عليه توصي هذه المرحلة البحثية بوجوب اختبار باقي التقنيات التي ستعتمد في الدراسة النهائية و التحكم بمختلف أبعادها وفق دراسة استكشافية ثانية تسمح بالانتقال بأريحية و ثبات لإجراء الدراسة النهائية حول التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين.

قائمة المراجع:

العايب،رابح. عقاقنية، مهاء. (2018). صورة أوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين- دراسة ميدانية على ضوء مقاربة جون كلود أبريك. مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية. ص210-224.

المخدامي، عبد القادر رزيق.(2012). الهجرة السرية و اللجوء السياسي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

بولعراس، فتحي. (2012). إشكالية الهجرة غير الشرعية في الجزائر و أزمة الدولة. الرباط: مركز جنوب شمال.

حافظ، نجوى. (2010). الشباب المصري و الهجرة غير الشرعية. القاهرة، مصر: دار القبس للطباعة.

ساعد، رشيد. (2012). واقع الهجرة غير الشرعية في الجزائر من منظور الأمن الإنساني(مذكرة ماجستير في العلوم السياسية) جامعة محمد خيضر بسكرة.

غربي، محمد . فوكة، سفيان. مشري، مرسي (2014). الهجرة غير الشرعية في منطقة البحر الأبيض المتوسط: المخاطر و استراتجيات المواجهة.بيروت: الروافد الثقافية و الجزائر: ابن النديم للنشر و التوزيع.

تقرير منظمة الهجرة الدولية. تدفقات الهجرة المختلطة في منطقة البحر الأبيض المتوسط وما بعدها. تجميع البيانات و المعلومات للفترة: 25 أغسطس - 6 سبتمبر عام 2016 مترجم من الانجليزية و محمل من الموقع الرسمي للمنظمة بتاريخ 4 سبتمبر 2016. http://migration.iom.int/europe

Abric, Jean Claude. (1994). Pratiques sociales et représentations. Paris : PUF.

Abric, Jean Claude. (2003). Méthodes d'études des représentations sociales. Paris : érés.

Doise, Willem& Clemence, Alain &Lorenzi-Cioldi, Fabio. (1992). Représentations sociales et analyse des données. Grenoble, France : PUG.

Durkheim , Emile. (1998). Représentations individuelles et représentations collectives. Paris, France : PUF .

Fischer. Gustave Nicolas. (2010). Les concepts fondamentaux de la psychologie sociale. 4e édition. Paris : DUNOD.

Flament, Claude & Rouquette, Michel louis. (2003). Anatomie des idées ordinaires. Paris : Armand Colin.

Jodelet, Denis. (2003). Les représentations sociales. Paris : PUF.

Moliner, Pascal & Rateau, Patrick & Cohen-scali, Valérie. (2002). Les représentations sociales : pratiques des études de terrain. Rennes : presses universitaires de Rennes.

Moscovici, Serge. (1976). La psychanalyse, son image et son public. Paris, France : PUF.